يوم البعث ...

للأستاذ محمود محمد شاكر

إن أحدنا لتستبد به فى بعض عمره فترات يجد فيها الحياة قد وقفت فى دمه كالجدار للصمت لا تميل ولا تنثنى ولا تتحول، ويجد النفس متماوتة لا ترف رفة واحدة تشعر العقل أن الحى الذى فيه لا يزال حياً يعمل ، ويجد الدنيا كأنها بساط ممدود يمشى فيه بعينيه ، ولكن البساط لا يمنحه حركة من هموده وسكونه وانعدام الحياة ذات الإشعاع فيه . ويتمنى أحدنا يومئذ أن تحل بأيامه قارعة تملأ عليه الزمن ضجيجاً وتزاعاً ، عسى أن يتحول كل ما يجده من الفتور إلى نشاط ويقظة وخفة تبعث ميت نفسه من رمس الحياة الخاملة

وهـذا العارض إذا ألم جعل الأيام مقعدة تزحف فى زمانه زحفاً بطيئاً مرهقاً كأنها أمسكت على مرفأ الحياة بسلسلة ربوض ، ويجعل الحى يعيش فى كذب وباطل وفراغ من الروح ، أى فى حيرة وقلق وملل ، فإذا حار وقلق ومل ، جاءت أعماله كلها جسداً لا ينبض نبض الحياة ، وكذلك يختلف ما بين الحى وعمله ، ويقف أحدهما من الآخر موقف التمثال العاجز من تمثاله ، يقول له : أين أنا فيك أيها التمثال النبي ؟ فيجيبه الصامت البغيض : أين أنت فى نفسك أيها الأحمق ؟

الحياة هى حركة الروح فى العمل ، فإذا خلا العمل ، فلم تتمثل فى كل أحنائه حركة الروح العاملة ، فذلك دليل على أن الروح مضروبة بالموت أو ما يشبهه ، وأنها قد فقدت شرطها ونعتها وحقيقتها ، وأنها إن عاشت على ذلك فستعيش فى قبر منصوب عليها فى تمثال إنسان . وإذا بلغ الإنسان ذلك أريقت كل إنسانيته على أيامه المقفرة فلا يثمر ، فإن يثمر فما يطيب له ثمر ، وإنما هو حسك وأشواك وحطب وكل ما لا ينفع فيه إلا أذىً وبلاء عليه وعلى الناس

وكما يكون ذلك أمر الفرد الواحد ، يكون هو أمر الأمة من الناس ، والجيل من الأمم ، فإن الفرد هو خلاصة الجماعة وأصل الجماعة . فالأمة تصاب بمثل الفترة التى يصاب بها الواحد منها ، ولا يمنع ذلك أن يكون فى بعضها ما يخرج على ضرورة هذا العارض من الفتور الذى وصفناه . وعندئذ تتمنى الأمة أن تنزل القارعة لتهز الجو الذى تعيش فيه هزة مدوية مجلجلة ، ترى فى سمع أبنائها الصوت الموقظ الذى يفزع عليه النائم ينفض عن نفسه الخمول والأحلام الهامدة والأمانى الباطلة المكذوبة

وقد عاش الشرق من قرون طويلة وهو يجد الحياة من حوله فاترة ساكنة بليدة ميتة الظلال عليه ، وجاء بعض أبنائه من سراديب الفكر البعيدة يصرخون ليوقظوا الأحياء الذين ضرب على آذانهم بالأسداد ، وغشاهم النعاس مجزاً وذلاً ومهانة ، ولكن هؤلاء رجموا وارتدوا ، ولم يسمع الناس ، وإنما سمعوا هم صدى أصواتهم وهى تتردد فى قفر خراب موحش

أما اليوم الذى نحن فيه ، فقد جاءت الشرق القارعة التى حلت بديار الناس وبديارة ، وهو يسمع صليل صواعقها بأعصابه كلها لا بآذانه وحدها ، وهو يفيق من نومة طويلة على ما لا عهد له بمثله . فهل يحق لنا أن نؤمل أن هذا الصليل المفزع سيجعل الشرق يلمُّ ما تشعث من حياته ليستقبل حياته الجديدة قد جمع قواه النهضة والوثبة والانتفاض على أوثان المظالم القديمة التى نصبت فسبدها من عبد ممن خشعوا وذلوا ، وطمعوا فى رحمة الطواغيت فنالوا — على أوهامهم — إلا فُتاتاً من موائد هذه الطواغيت المتوحشة المستبدة الطاغية ؟

إن الشرق اليوم يجب أن يسأل سؤالاً واحداً يكون جوابه عملاً صارماً نافذاً لا يرعوى دون غايته ، وهذا السؤال هو أول سؤال ينتزع إنسانية الحى من الموت الفادح ، إذا كان الدافع إليه هو رغبة النفس فى تحقيق إرادتها تحقيقاً لا يبطل . من أنا ؟ هـذا هو السؤال ؛ فإذا أخذ الشرق يسأل يحاول أن يصل إلى حقيقته المضمرة فى تاريخه ، فهذا بدء النصر على الأيام الخاملة التى غط غطيطه فى كهوفها المظلمة

ولكن البحث عن الحقيقة هو أبداً أروع شىء وأخوف شىء ، فإن السائل شاك حائر ، فإذا لم يستعن فى حيرته بالسداد فى الرأى وطول التقليب وحسن الاختيار وبالله التوفيق ، فإن السؤال سوف ينزع به وينبث عليه ويأخذه ويدعه حتى تتحطم قوته على جبل شامخ قد انغرست فيه أشواك صخرية من الحصا

المسنون ، ويرجع مجرّحاً ندمى جروحه ، يتألم ويتوجع ويشتكى قد أعياه الصبر على الذى يلقاه من أوجاعه

فحاجتنا فى البحث عن الحقائق التى يتطلبها هذا السؤال ، أن نتدرع بقوة اليقين مما نحن مقبلون عليه من مجاهله ومنكراته ، وأن نستجيش للنفس كل ما يزعها ويكفها عن الشك والتردد ، وأن نقبل على دراسة أنفسنا بفضيلة التعلم المتواضع ، لا برذيلة المتعالم المتشامخ ، فإن بلاء التعلم والدرس هو كبرياء الحمق وغرور ذوى العناد والمكابرة

والأمر كله الآن بيد الشعب أفراداً أفراداً ، فإن العادة المستقبحة فى هذا الشرق أنه يكل كل أمره إلى حكوماته التى أثبتت بوجودها إلى اليوم أنه لا وجود لها فى حقيقة الحياة الشرقية . فالحكومات لا تستطيع أن تضع فى روح الشعب هذا الإلهام الإلهى السامى الذى يشرق نوره على الإنسانية فيجلى لها طريقها ، وينفى عنها خبثها ، ويغسلها بأضوائه المنهلة من أعراض البلادة وجراثيم التفانى والانقراض

ليس لشرقى أو عربى بعد اليوم أن يقف مستكيناً يقول لحكومته : إفعلى من أجلى يا حكومتى العزيزة !! بل يجب أن تكون كلمته : اعملى يا حكومتى فإذا أسأت فأنا الذى سيصحح أخطاء أعمالك الرديئة ! ويجعل كل أحد منا همه سامياً إلى غاية ، وأمله معقوداً بغرض ، ويبيت ليله ونهاره يتمارس فى نفسه وفى أهله وفى عشيرته وفى شعبه ، وفى التاريخ النبيل ، وفى التراث المجيد — حقيقة ما يجب أن يتعرّفه من شُعَب هذا السؤال الواحد : من أنا ؟ ؟

والدعوة الجديدة إلى اليقظة الشرقية والعربية والإسلامية يجب أن تقوم على إثارة الشعب كله ليسأل كل أحد نفسه هذا السؤال : من أنا ؟ فالعالم والأديب والشاعر والفيلسوف والعامل والصانع وأعضاء الأمة على اختلاف منازعهم ونوازعهم يجب أن يشعروا فى قلوبهم بحاجتهم إلى هذا السؤال ، وأنهم موكلون به لا يهدأون ، وأنهم دائماً فى طريقهم إلى جمع الحقائق الجواب عن هذا السؤال الواحد

أما قيام الدعوة على البحث عن طرق الإصلاح وأساليب الإصلاح وتحقيق ذلك بالطرق العلمية . . . إلى آخر ما يقال فى هذا الباب من القول ، فما يجدى على الأمة شيئاً إلا ما أجدى قديم ما رددوه ولاكوه ومضغوه من الآراء التى عانوا وضعها ، فلما وضعوها ماتت فى المهد . وليس يمنع البحث عن مثل هذه الأشياء أن نكون أول ما نكون سباقين إلى الأصل الذى يجب أن تقوم عليه هذه الأشياء كلها

إن الأمم لا يُصلحها مشروع ولا أسلوب من الحكم ، ولا بابٌ من الإصلاح ، وإنما يحييها أن يكون كل فرد فيها دليلاً — بما فيه من الحركة النفسية — على أن الحياة التى يعيشها هى إثباتٌ لوجوده . ولا يثبت الوجود الحىّ إلا بقدرته على الاحتفاظ بشخصيته ، ولا يحتفظ المرء بشخصيته إلا أن يكون قد استوعب فهم ما يستطيع من حقيقة هذه الشخصية ، وهو لا يفهم هذه الشخصية إلا أن تكون كل أفكاره متنبهة لتحليل كل شىء يعرض له ، وذلك حين يكون كل همه فى البحث عن أشياء هذا السؤال الواحد : من أنا ؟

فإذا استطعنا فى هذه الساعة الهائلة من تاريخ العالم وتاريخ الإنسانية أن نجعل طبقات الشعوب الشرقية تثور ثورتها على الفتور والجهل والغباء والبلادة وقلة الاحتفال بالحياة ، وأن نجعل سلاح الثورة على أخسه وأجوده وأمضاه فى هذا السؤال ، فقام كل أحد يسأل بمن أنا ؟ فتجديد الحياة فى الشرق حقيقةٌ لا مناص للعالم بعدها من الاعتراف بأنها واجبة الوجود على الأرض . وأما إذا انطلقت مع أحلام النوم وفلسفة الأحلام ، وجعلنا نلبس مُسُوح العلماء والمفكرين ، وجلاليب الوقار والسمت ... أى البلادة ! فقد هلك على أيدينا من كان حقه علينا أن نجعل هذه الأيدى خدماً فى حاجاته ومرافقه

إن من المراء أن تأتى مجلس قوم من بلداء المهندسين قد اختلفوا فى الأرض : هل تصلح لوضع الأساس أو لا تصلح ؟ فتحدثهم أنت أن الرأى أن يتحولوا إلى مكان آخر من صفته ومن نعته ... مما يصلح عليه البناء ! فإن هؤلاء إذا بدأوا أمرهم بالاختلاف على ما يجدون عنه مندوحة ، فاعلم أنه لا فلاح لهم ، وإنما الرأى أن تتحول أنت عن هؤلاء البلداء إلى من تجد عنده من الانبعاث إلى العمل ما لا يجد معه وقتاً يضيعه فى ترجيح بعض ما يختلف عليه على بعض آخر

فالطريق الآن إلى الحياة الجديدة أن يتحول الشرق عن

أصحاب الاختلاف والمنابذة وعلم الآراء التي يضرب بعضها وجوه بعض تناقضاً وتبايناً وافتراقاً ، وأن يصغى إلى حنين النفوس المتألمة التي نحن وتين من أشواقها ، فيتجاوب حنينها نغماً روحياً فيه حركة الحياة ، وحرارة الوجد ، وأضواء الأمل . وعندئذ يستجيب القلب للقلب ، وتستمد الروح من الروح ، وتثور الأشواق الخالدة في القلوب الطامحة والأرواح السامية ، وبذلك تستحث الحياة الحياة إلى الغاية التي يرمى إليها الشرق بأبصاره من تاريخه ومن وراء التاريخ

إن عمل العامل في أول الطريق غير عمله في آخره ، فنحن سوف نبدأ — وسنبدأ بإذن الله — ، فعملنا الآن هو إنقاذ أرواح الملايين من الموت ومن الفتور ومن الكسل ، وليس عملنا أن نضع الأسس العلمية أو السياسية أو الأدبية لأرواح موات لا حركة فيها ولا انبعاث لها . وما جدوى علم لا روح فيه ؟ أو سياسة لا نشاط فيها ؟ أو أدب لا قلب له ؟

إن عمل من يريد أن يعمل اليوم هو أن ينفخ في صور جديد يكون صوته فزعاً جديداً مع الفزع الأكبر الذي نحن فيه ، حتى تنبعث الأمم الشرقية من أجدائها ثائرة حثيثة قد احتشدت في ساحة الجهاد تلمع قسماتها بذلك اللهيب المتضرم الذي يتوقد بالأشواق ، وتلمع نظراتها لمعاً بالشعاع الظامئ المتوهج بالأماني المرهقة المتسعرة ، وتتجلى في كل عضو منها تلك القوة المعروفة في العضلات المفتولة ، يخيل لمبصرها أنها تكاد تنفجر من ضغط الدم في أنهارها وأعصابها لو لا ما يمسكها من جلدة البدن

يومئذ يكون جواب الشرق عن سؤاله : من أنا ؟ عملاً صامتاً لا يتكلم ، لأنه لا يضيع أيامه في إسماع الزمن الأصم أساطيره الباطلة التي يرويها عن أحلام البلادة والجهل والخمول .

محمود محمد شاكر